جذور الأسلوبية الحديثة في الدراسات البلاغية العربية القديمة

"كتاب مفتاح العلوم للسكاكي نموذجا"

الأستاذ: بوقرط الطيب

جامعة وهران-السانية/ الجزائر

مقدمة:

لقد بدأ مع مطلع القرن العشرين اهتمام كبير بعلم اللغة واللسانيات،حيث انتقلت الدراسات اللغوية نقلة نوعية على هذا الصعيد،ثم سرعان ما امتد هذا الاهتمام ليشمل حقل الأدب والإبداع الأدبي، بوصفه نصوصاً ذات بنية لغوية في الأصل.وقد كان من نتائج هذا الاهتمام نشوء علم جديد يبحث في لغة النصوص الأدبية عرف بـ"الأسلوبية"،فأصبح منهجاً ومدخلاً للنصوص الأدبية،لتحديد خصائصها وسماتها الجمالية.

واليوم تعد"الأسلوبية"من المناهج النقدية الحديثة التي تركز على دراسة النص الأدبي،وتمتاز بأنها تقوم على أمور ثابتة مستقاة من علوم البلاغة،والنحو،والصرف...،معتمدة على التفسير والتحليل،وهي تمثل مرحلة متطورة من مراحل تطور الدرس البلاغي والنقدي،فقد استطاعت الأسلوبية أن تتجاوز حالة الضعف والقصور الموجودة في البلاغة العربية القديمة لتمثل منهجاً حديثاً في التحليل والنقد،إذ تتعدى الدراسة الجزئية أو الشكلية إلى دراسة أعمق وأشمل،إلا أن هذا العلم الحديث(الأسلوبية) لم ينطلق من العدم بل تمتد جذوره إلى تراثنا النقدي والبلاغي،فقد كانت معظم قضاياه وتصوراته ترجع-في أغلبها-إلى"الأسلوب"،حيث قدمت البلاغة العربية القديمة تفكيراً أسلوبياً ناضجاً لم تغب عنه أبرز القضايا التي تثيرها الأسلوبية الحديثة،حيث انصب اهتمام البلاغيين العرب القدامى على ركائز أساسية في العمل الأدبي لا تبتعد عن الركائز التي انطلقت منها الدراسات الأسلوبية الحديثة؛لذلك ارتأينا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على ما في علوم البلاغة العربية القديمة من قضايا بلاغية،يمكن أن تشكل أساسا لكثير من القضايا التي تعالجها الأسلوبية الحديثة.

فلا شك أن هناك جدلا واسعا يتمحور حول العلاقة القائمة بين البلاغة والأسلوبية،تكثر معه الأسئلة حول تأثير البلاغة في"علم الأسلوب"الحديث،فهل تعتبر البلاغة المنشأ الأول للأسلوبية؟أم أن الأسلوبية علم نقدي حديث نشأ بمعزل عن تأثير البلاغة؟هذه الأسئلة وغيرها تحيلنا إلى دراسة الصلة بين البلاغة العربية القديمة والأسلوبية الحديثة عسى أن يقودنا ذلك إلى كشف العلاقة القائمة بينهما.

وعليه سنحاول تتبع تلك الإشارات والتنويهات التي قدمها"السكاكي"[*]رحمه الله في كتابه"مفتاح العلوم"وذلك بحسب علوم البلاغة العربية الثلاثة (علم المعاني،علم البيان،علم البديع)،والتي قد تشكل بقضاياها بعضا من المناحي الأسلوبية الحديثة،إذ يعد"السكاكي"صاحب فضل في تهذيب مسائل البلاغة العربية،حيث كانت صيغته في الدرس البلاغي"أقرب إلى روح العلم وأجدرها بأن تكون طرفا في علاقة الحوار بين التراث البلاغي والأسلوبيات اللسانية المعاصرة"[1]خاصة وأنه قد استوحى معظم القضايا البلاغية في كتابه:"مفتاح العلوم"من مجهودات سابقيه،أمثال:"عبد القاهر الجرجاني"في كتابيه:"دلائل الإعجاز"و"أسرارالبلاغة"،والإمام"الزمخشري"في كتابه:"الكشاف"،و"الفخر الرازي"في كتابه:"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"وغيرهم–فعلى الرغم من ذلك–فإنه قد فاتهم تنسيقاً وتقسيماً واستيعاباً لكثير من القضايا التي لا تزال الساحة الأدبية تتعامل معها وفق الرؤية التي رسمها وحددها"السكاكي"في القرن السابع الهجري .

وهكذا سنسعى من خلال هذا المقال إلى تتبع الجهود البلاغية والنقدية لدى القدامى،وتحديدا تلك التي كانت للسكاكي رحمه الله عبر آرائه الاستشرافية،التي قد تقترب بشكل أو بأخر من بعض ملامح الدرس الأسلوبي الحديث،حيث إن تعاملنا مع النصوص البلاغية عند"السكاكي"سيعتمد على تحليل النصوص بشكل يتخذ من التركيب اللغوي أساساً له،ثم إبراز القيم البلاغية المتجلية فيها،ومقابلتها بأسس المباحث الأسلوبية الحديثة .

– علاقة الأسلوبية الحديثة بالبلاغة العربية القديمة:

تقيم بين البلاغة والأسلوبية الحديثة،منذ زمن،علاقة وطيدة:"تتقلص الأسلوبية أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي،وتنفصل أحيانا عن النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلها باعتبارها بلاغة مختزلة."[2]فالأسلوبية منهج تحليلي للأعمال الأدبية،يقوم بوصف النص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات [3]،وهي كما ينظر إليها جل الدارسين"وليدة البلاغة ووريثها المباشر"[4]،أوهي:"بلاغة حديثة"[5]فكان ينظر إلى البلاغة دائما على أنها بداية الأسلوبية. [6]ولعل أول من استعمل هذا المصطلح شخص اسمه:"نوفاليس"(Novalis)،وكانت الأسلوبية عنده تختلط مع

---

* – يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب،سراج الدين،أحد أئمة العربية في عصره،عالمٌ فذ في النحو والتصريف والمعاني والبيان والعروض والشعر وغير ذلك. ولد في سنة (555هـ)،جمادى الأولى،وتوفي بخوارزم سنة (626هـ).

1 – مصلوح،سعد عبد العزيز ،في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة"مجلس النشر العلمي،جامعة الكويت،2003،ص:30.

2 – هنريش بليت،البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص،ترجمة:محمد العمري،أفريقيا الشرق،بيروت،لبنان،1999،ص:19.

3– محمد عبد المنعم خفاجي/محمد السعدي فرهود/عبد العزيز شرف،الأسلوبية والبيان العربي،الدار المصرية اللبنانية،ط1 ،1992،ص: 11/ 23 .

4 – عبد السلام المسدي،الأسلوبية والأسلوب،دار العربية للكتاب،تونس، ط 2 ،1982م،ص:52.

5 – بيير غييرو،الأسلوب والاسلوبية،ترجمة :منذر عياشي،مركز الإنماء القومي،لبنان،دت،ص:5.

6 – شبلنر برند،علم اللغة والدراسات الأدبية،ترجمة :محمد جاد الرب،دار الفنية للنشر والتوزيع،القاهرة،1991م ،ص:5.

البلاغة[7]،وقد تبعه في هذا المفهوم"هيلانغ"(Hilang) الذي يقول:"إن الأسلوبية عمل بلاغي"[8]،ثم انفصلت عنها،والتحقت بميدان الدراسات اللسانية التي يعد العالم السوسيري"دي سوسير"رائدها الأول.

لقد تعددت تعريفات العلماء للأسلوبية،وتنوعت نورد منها:تعريف مؤسسها الأول"شارل بالي"(Charles Bally)إذ يقول:"علم يعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية."[9]،وعرفها"جاكبسون"بقوله:"بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا عن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا."[10]ويقول:"عبد السلام المسدي"عن هذا المصطلح أنه مركب من جذر"أسلوب"ولاحقته"ية"،فالأسلوب ذو مدلول إنساني ذاتي واللاحقة تختص بالبعد العلماني العقلي الموضوعي. [11]،وبذلك تدفعنا رؤية"المسدي"إلى استقراء مفهوم"الأسلوب"،فطالما دارت لفظة"الأسلوب"في كثير من كتابات النقاد ودارسي الأدب في تنظيرهم وتطبيقاتهم على النصوص،وطالما ذكرها البلاغيون القدامى في أطروحاتهم ورؤاهم البلاغية؛لهذا أحببت أن أقدم في السطور التالية إضاءة لهذه الكلمة،وتقريبًا لمفهومها من خلال التعريف بها .

إذ نجد أن مصطلح"الأسلوب"قد عرف قديما عند العرب كما عرف عند غيرهم،وهو في المعجم العربي يعني:"السطر من النخيل وكل طريق ممتد،والأسلوب هو الطريق والمذهب،والجمع أساليب." [12]كما استخدم علماء العربية هذا اللفظ في دلالات اصطلاحية متعددة،حيث ذكر"ابن قتيبة"مصطلح الأسلوب في قوله :"إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب".و عرّفه كذلك"ابن خلدون"بقوله:هو"المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي تُفرغ فيه." [13]وقد تطرق أيضا"عبد القاهر الجرجاني"للأسلوب فقال في تعريفه: هو"الضرب من النظم والطريق فيه."[14]

والذي يظهر من خلال هاته التعريفات أنها تؤكد وجود هذا المصطلح قديما.إلا أنهم لم يكونوا يستخدمون مصطلح"الأسلوب"بالمعنى المستخدم الآن،وإنما يعنون به الطريقة الخاصة في النظم والسمة

---

7 – م،س ،ص:5.

8 – م،ن ،ص،ن.

9 – محمد اللويمي،في الأسلوب والأسلوبية،مطابع الحميضي،ط1،د،ت ،ص: 42.

10 – عبد السلام المسدي،الأسلوب والأسلوبية،الدار العربية للكتاب،ليبيا وتونس،1977،ص:33.

11 – م،ن ،ص:34.

12 – ابن منظور ،لسان العرب،دار صادر ،بيروت،ط1 ، 2000م،مادة(سلب)،ص:225.

13 – ابن خلدون،المقدمة،دار إحياء التراث العربي،بيروت،1408هـ،ص. 570.

14 – عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ،تحقيق:محمود شاكر ,مكتبة الخانجي،القاهرة،1404هـ،ص. 469.

المميزة لكلام عن كلام آخر،وهذا يفيدنا أن أصل اللفظ وشيء من المعنى كان موجودا عند علمائنا البلاغيين الأوائل قديما.

وإذا أتينا إلى ذكر"الأسلوب"عند الأوروبيين قديما فقد كان منذ عهد"أرسطو"ومن بعده يستخدم أصلا للقلم والريشة ثم استخدم لفن النحت العمارة،ثم دخل في مجال الدراسات الأدبية،حيث صار يعني أي طريق خاص لاستعمال اللغة بحيث تكون هذه الطريقة صفة مميزة للكاتب أو الخطيب.(15)

أما عن"الأسلوب"في العصر الحديث،فإنه يعرّف بعدة تعريفات نظرا لتعدد الاعتبارات،فإذا كان باعتبار"المرسل"(المخاطِب)فهو: التعبير الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه؛ولذلك قالوا الأسلوب هو الرجل.وإذا كان باعتبار المتلقي والمخاطب فهو: سمات النص التي تترك أثرها على المتلقي أيا كان هذا الأثر .أما باعتبار"الخطاب"فهو: مجموعة الظواهر اللغوية المختارة الموظفة المشكلة عدولا،وما يتصل به من إيحاءات ودلالات. (16)

ومن هنا يتضح لنا الفرق بين الأسلوب والأسلوبية (علم الأسلوب) إذ يتبين أن الأسلوب هو التعبير اللساني ووصف للكلام،وإنزال للقيمة التأثرية منزلة خاصة في السياق.في حين أن الأسلوبية "علم له أسس وقواعد ومجال يسعى لدراسة التعبير اللساني من خلال الكشف عن تلك القيمة التأثرية من ناحية جمالية ونفسية وعاطفية. (17)

بين الأسلوبية والبلاغة علاقة وثيقة تتمثل أساسا في أن محور البحث في كليهما هو الأدب،غير أن التراث البلاغي لم يعد قادرا على الوفاء بما يقتضيه النص الأدبي،وقد عرض الدكتور"محمد عبد المطلب"بعض الجوانب التي تبين قصور"البلاغة القديمة"،حيث يرى أن الدراسات البلاغية أغفلت جوانب مهمة في الأداء الفني مثل الجوانب النفسية والاجتماعية،إذ وقفت عند جزئيات النص،ولم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي الكامل،كما سيطرت على البلاغة معيارية خالصة اعتبر فيها البلاغيون من أنفسهم أوصياء على الإبداع الأدبي من خلال توصيات فندوها وجعلوها سيفا مسلطا على رقاب الأدباء.(18) وهكذا أتاح تجمد البلاغة الفرصة للأسلوبية؛لكي تقدم بعض الإمكانيات المساعدة،التي لا يسهل الحصول عليها إلا من خلالها،وهي إمكانيات تزيد من فهمنا للنص بتركيزها على طبيعته اللغوية،ومواجهة هذه الطبيعة للمبدع من ناحية والقارئ من ناحية أخرى،وما يترتب على ذلك من تحليلات وتفسيرات

15 – ينظر:عدنان النحوي،الأسلوب والأسلوبية بين العلمانية والأدب الملتزم بالإسلام،دار النحوي،ط1419،1هـ،ص .145.

16 – ينظر. سعد أبو الرضا،النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة رؤية إسلامية،ط1428،2هـ،ص.117،ومحمد اللويمي في الأسلوب والأسلوبية،ص.16.

17 – ينظر:محمد اللويمي،في الأسلوب والأسلوبية،ص.42،وعدنان النحوي،الأسلوب والأسلوبية،ص.156.

18– ينظر: محمد عبد المطلب،البلاغة والأسلوبية،دار نوبار للطباعة،القاهرة،ط1994،1،ص: 258 – 260.

يصعب الحصول عليها إلا من خلال الدراسة الأسلوبية [19]التي ترتكز على ثنائية تكاملية هي من مواضعات التفكير الألسني،وقد أحكم استغلالها علميا"سوسير"،وتتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة الألسنية إلى ظاهرتين وجوديتين،"ظاهرة اللغة"، و"ظاهرة العبارة"،وقد اعتمد كل الألسنيين بعد"سوسير"هذا الثنائي،فحاولوا تركيزه في التحليل،وتدقيقه بمصطلحات تتلون بسمات اتجاهاتهم الألسنية. [20]

وإذا أتينا إلى البحث في أوجه الاختلاف بين البلاغة القديمة والأسلوبية،فإننا نجد أن البلاغة القديمة هي الشواهد المتفرقة والأمثلة المجتزأة،فهي بلاغة الشاهد والمثال والجملة المفردة في معظمها؛أما الدرس الأسلوبي الحديث،فلا يأخذ مادته من الشاهد والمثال،وإنما يعالج نصا أو خطابا أو مجموعة من النصوص يجمعها جامع واحد من مؤلف أو موضوع أو فن أو عصر. كما يغلب على تقسيم علوم البلاغة وترتيب مباحثها وطرق الفحص فيها الطابع التفتيتي؛في حين تغلب على الأسلوبية تصورات البنية والنسق والعلاقات. [21]

- **جذور الأسلوبية في الموروث النقدي والبلاغي للسكاكي:**

1- صلة الأسلوبية بعلم المعاني:

قال"السكاكي"في تعريف علم المعاني:"اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلم في الإفادة،وما يتصل بها من الاستحسان وغيره،ليحترز بالوقوف عليها من الخطإ في تطبيق الكلام على مايقتضي الحال ذكره"[22]،إذ يعني السكاكي"بتراكيب الكلام،التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة،وهي تراكيب البلغاء،لا الصادرة عمن سواهم."[23]وهكذا فعلم المعاني يختص بالبحث في"أحوال اللفظ العربي من تعريف وتنكير،وذكر وحذف،وتقديم وتأخير،وقصر،وفصل ووصل،وغيره من الموضوعات التي تتعلق بدراسة أحوال التراكيب،وكيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال."[24] وتجدر الإشارة

---

19 – م،ن ،ص: 355/354.

20 – عبد السلام المسدّي،الأسلوبية والأسلوب،ص:34.

21– مص21 – م،ن ،ص: 355/354.

21 – عبد لوح،سعد عبد العزيز ،في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة،ص: 67 –71 .

22 – الإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي،:مفتاح العلوم،تحقيق:نعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،1983،ص:161.

23 – م،ن ،ص:161.

24 – محمود أبو زيد،علم المعاني،دراسة وتحليل،كريمة،مكتبة وهبة، ط1 ،1988،ص:32.

هاهنا إلى أنه"ليس في كتب البلاغة الأولى إشارة إلى هذا العلم،ولا نعرف أحدا استعمله وسمى به قسما من موضوعات البلاغة قبل السكاكي."[25]

والأسلوبية أيضا تتناول التغيرات التي تطرأ على استخدام اللغة،مثل:التقديم والتأخير والحذف والوصل والفصل،وأساليب القصر...وكل ما يكون من الأساليب اللغوية التي تشكل ظواهر أسلوبية،كما اهتمت الأسلوبية كذلك بظاهرة"الانزياح"والتي تعني انحراف الكلام عن نسقه المألوف(الكلام النمطي الإبلاغي) من خلال تجاوز صيغ الأساليب الجاهزة.

و يعرف الانزياح في تراثنا البلاغي باسم"العدول"،وقد أطلق عليه ابن جني:" الانحراف" [26]،كما يقترب هذا المفهوم من قول البلاغيين: "خلاف مقتضى الظاهر"،أو : "تلقي المخاطَب بغير ما يترقب " [27]. و فيما يلي سنورد بعضا من مظاهر"العدول"التي وردت في كتاب"مفتاح العلوم"للسكاكي من خلال الوقوف على بعض إشاراته البلاغية والنقدية التي قد تعد من صميم الدرس الأسلوبي الحديث .

نجد في دراسة البلاغيين القدامى أساسا للدرس الأسلوبي الحديث،حيث نقف على ذلك في حديث السكاكي عن الخبر الإنكاري وتنوع الأسلوب فيه،حسب فهم المخاطب أو مقتضى الحال "كنحو:صادق إني،لمن ينكر صدقك إنكارا،واني لصادق،لمن يبالغ في إنكار صدقك،و والله إني لصادق."[28]فمثل هذا التنويع الأسلوبي الذي أشار إليه"السكاكي"يشكل ظاهرة أسلوبية إذا تكرر في أي نص،إذ تسعى الأسلوبية إلى تحليل البنية اللغوية للنص،وهي بذلك تلتقي مع أساسيات العمل البلاغي من خلال"تفحص أدواته وأنواع تشكيلاته الفنية."[29]

وقد وقف"السكاكي"كذلك عند قضية تقديم"المسند إليه"على"المسند"مطولا،إذ يرى أن"الحالة التي تقتضي تقديمه على المسند هي : متى كان ذكره أهم،يقع باعتبارات مختلفة : إما لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه[...] وإما لأنه متضمن للاستفهام[...]،وإما لتضمنه ضمير الشأن والقصة[...]وإما لأن في تقديمه تشويقا للسامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أورده..."[30]

---

25 – أحمد، مطلوب ،أساليب بلاغية الفصاحة–البلاغة–المعاني،وكالة المطبوعات،الكويت،ط1 ،1980،ص:67.

26 – ابن جني،الخصائص،تحقيق:محمد علي النجار،ج3،الناشر دار الكتاب العربي،بيروت،1957،ص. 268.

27 - جلال الدين القزويني،بغية الإيضاح في علوم البلاغة،القول في الإيجاز والإطناب والمساواة،ص:76

28 – السكاكي،مفتاح العلوم،ص: 171.

29 – الحربي،فرحان بدري،الأسلوبية في النقد العربي الحديث،دراسة في تحليل الخطاب،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،2003،ص:15.

30 – ينظر: السكاكي،مفتاح العلوم،ص: 194.

وعليه فتغيير الترتيب (بالتقديم أو التأخير) يُمثِّل عدولاً عن هذا الأصل المثالي،واختراقًا للحركة الأُفُقية المنتظِمة المسيطرة على بنيته العميقة،تبعًا لعنصر القصد عند المبدع،حيث تتوافق البِنيةُ السطحية المخالفة مع اتِّجاه الحركة الذهنية عند المبدع؛"لأنَّ مجرَّد مخالفة الترتيب المثالي،ينبئ عن غرضٍ ما،هو إبراز كلمة أو نكتة لتوجيه الْتفات المتلقي إليها[...]ومن ثَمَّ فهذا الإجراء الأسلوبي يتطلَّب مِن صاحبه حسًّا لغويًّا مدربًا،ولطفا عاليًا في الذوق الأدبي،يُضاف إليه معرفةٌ بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة."[31]والتي تتدخَّل في التركيب اللغوي للعبارة.

ولقد شغل الإيجاز والإطناب أيضا كثيراً من البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً،حيث يرى بعض المعاصرين،أنَّ العربية ما عرفت الإطناب إلاَّ بعد امتزاج الثقافات واختلاط العرب بغيرهم.وقد قال عنهما السكاكي: "أمَّا الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلاَّ بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي،مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم،ولا بد من الاعتراف بذلك مقيساً عليه،ولنسمه متعارف الأوساط."[32] فذكاءُ المُخاطَب: حالٌ تَقتضي إيجازَ القول،فإذا أَوَجزتَ في خطابهِ كان كلامُك مطابقاً لمقتضَى الحالِ،وغباوتُه حالٌ تقتضي الإطنابَ والإطالةَ،فإذا جاءَ كلامُك في مخاطبتهِ مطنباً: فهو مطابقٌ لمُقتضَى الحال،ويكونُ كلامُك في الحالين بليغاً،وَلو أنكَ عكستَ لانتفتْ منْ كلامِك صفةُ البلاغةِ.ففي قوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [33]،وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ [34] قال السكاكي :هي المحنة والشدائد فقد بلغت شدتها وفضاعة شأنها مبلغاً يبهت الوصف معه لا يجير ببنت شفةٍ،أي يجيب بكلمة.[35]

و نجد أن السكاكي من أكثرَ البلاغيين فَهْمًا واستيعابًا لهذا المبحث"المثالي والمنحرف"،إذ نظر لكلٍّ من الإيجاز والإطناب باعتبارهما أمرين نسبيين،من حيث كانَا ممثلين لعدول عن أصْل مفترض،هو"المساواة"،وهي متعارف أوساط الناس.[36]

فمن ذلك يتبيَّن لنا مدى إدراك"السكاكي"لطابع الانحراف،والمنحى الفني فيه في كلٍّ من الإيجاز والإطناب،وذلك في ضوْء وصْفه لهما بأنهما نسبيَّان.فرؤية"السكاكي"لقضية"الإيجاز والإطناب"في معرض تحليله لأسلوب النص هي جزء من التحليل الذي تشترك فيه"البلاغة القديمة"مع"الأسلوبية الحديثة"،حيث

---

31 – فندريس،اللغة،ص: **188**،وينظر: اللغة والإبداع الأدبي، ص: **20**.

32 – جلال الدين القزويني،بغية الإيضاح في علوم البلاغة،القول في الإيجاز والإطناب والمساواة،ص: **170**.

33 – سورة الزمر،رقم الآية: **73**.

34 – سورة السجدة،رقم الآية:12

35 – السكاكي،مفتاح العلوم،ص:123.

36 – م،ن،ص: 133.

تهتم هذه الأخيرة بالتحليل الداخلي و التزامني من خلال تعزيزها البحث المختص بجماليات الكتابة فضلا عن دراسة الترابط بين الشكل والمضمون.

ويذهب السكاكي كذلك في سياق حديثه عن التعريف والتنكير إلى أنه قد"يكون التنكير لأن السياق غير صالح للتعريف؛لأن المتكلم لا يعرف من الحقيقة إلا ذلك القدر،وهو أنه رجل،أو أن المتكلم يتجاهل،ويرى أنه لا يعرف منه إلا جنسه.(37)ونجد كذلك أن سياق التعظيم أو التحقير يعود إلى المتكلم في أن المُنَكَّرَ قد بلغ شأنا في الارتفاع أو الانحطاط وصل إلى حد يوهم أنه لا يمكن أن يعرف.من ذلك قول ابن أبي السمط:

له حاجب في كل أمر يشينه***وليس له عن طالب العرف حاجب

يرى السكاكي في هذا البيت أن الفهم والذوق يقتضيان كمال ارتفاع شأن حاجب الأول،وكمال انحطاط حاجب الثاني.(38)

وهكذا نتبين من خلال المثال السابق أن التغيير في تركيب الجملة يترتب عليه في المقابل تغيير في المعنى،حتى وإن كان طفيفا،حيث إن كل تركيب أسلوبي يتضمن أبعادا دلالية تخصه،وأن أي تغيير في بنية التركيب بتعريف أو تنكير يكون بهدف ويتقصده المنشئ عن وعي وإدراك،ولا يمكن أن تظهر خاصية أسلوبية في التركيب دون قصد.

وتناول البلاغيون في مباحث علم المعاني أيضا"سياقات الكلام التي يرد فيها حذف أحد أطراف الإسناد،وذلك من منطلق أن النظام اللغوي يقتضي في الأصل ذكر الأطراف،ولكن التطبيق العملي من خلال الكلام قد يسقط احدها اعتمادا على دلالة المقالية أو الحالية". (39)كما تناولوا أيضا السياقات التي يرد فيها–الذكر"باعتباره الأصل قي الصياغة،أو هو الغالب ما دامت لم توجد نكتة ترجح الحذف."(40)

فالمتكلم عندما يقوم بعملية اختيار للمادة الغوية المتاحة فإنه بلا شك"يقع تحت تأثير النظام الخاص بلغته–وهو نظام–كما قلنا–يعتبر(الذكر)أصل الأداء،ولكن المتكلم يمتلك نية جمالية تجعل لهذا

---

37 – م،س،ص:83.

38 – م،ن،ص،ن.

39 – محمد عبد المطلب،البلاغة والأسلوبية،دار نوبار للطباعة،القاهرة،ط1 ،1994،ص:313.

40 – م،ن ،ص:326.

(الذكر)هدفا بلاغيا،يتصل بطبيعة هذا المتصل كما يتصل–في بعض الأحيان–بطبيعة الصياغة ذاتها–وأجزاء الجملة كلها تأخذ حقها من التساوي في أهمية الذكر،كما أخذت حقها في أهمية الحذف."[41]

إذن فقد يتصل الذكر بظروف سياق المخاطبين أو المخاطب،ويكون متمما لعملية التوصيل فيما إذا كان فهم السامع منوطا باللفظ دون القرائن التي لا يعول عليها في هذا السياق وفيما قصد به التنبيه على غباوة السامع،وأنه لا يفهم إلا بالتصريح،كأن تقول لمن يسمع القرآن:القرآن كلام الله.

وورد كذلك في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾[42]حين قال له الله تعالى: ﴿ما تلك بيمينك يا موسى﴾[43]،وكان يكفي في الجواب أن يقول (هي عصاً)؛لكنه ذكر المسند إليه وهو الضمير في قوله (هي عصاي)حبا في إطالة الكلام؛وربما لهذا لم يكتف موسى بذكر المسند إليه بل أعقب ذلك بذكر أوصاف لم يسأل عنها،وهي في قوله عز وجل: ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾. [44]

يظهر لنا جليا أن كل من ألوان الحذف وألوان الذكر يمكن تنميتها في الدراسة الأسلوبية الحديثة،"من حيث يصبح الكل له الأهمية الأولى،أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء،وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء،أو توقف تأثيره في السياق."[45]

ويؤكد السكاكي في حديثه عن الوصل والفصل كذلك تبادل الحروف للوظائف المعنوية فيما بينها،فعندما يتحدث عن"الباء"يقول:إنها للإلصاق كقولنا:"به عيب"،ثم تستعمل للقسم،وللاستعطاف،وللاستعانة،وبمعنى (عن)كقولنا : "سألت به"أي عنه،وبمعنى:(في) أو (مع)"كنحو"فلان بالبلد"،ودخلت عليه بثياب السفر"و"من"تكون للتعدية والمجاورة،ثم تستعمل بمعنى:(اللام)وبمعنى:(على)،و"في" للظرفية،وفي قوله تعالى : ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾[46]،فقد

41 – م،ن،ص،ن.

42 – سورة طه،رقم الآية: 18.

43 – سورة طه،رقم الآية: 17.

44 – السكاكي،مفتاح العلوم،ص:77.

45 – محمد عبد المطلب،البلاغة والأسلوبية،ص:350.

46 – سورة طه،رقم الآية : 71.

جاءت"في"بمعنى:(على). [47]وهكذا فتأثير العدول من حرف إلى حرف قد يؤدي إلى تغيير كلي في المعنى ...لأننا نقول:أعطيته فأخذ،ودعوته فأجاب"،ولا نقول"أعطيته وأخذ "ولا دعوته وأجاب"[48]

ويحيلنا ما سبق إلى القول أن مسألة"العدول"في استعمال الحروف قد امتدت في مباحث النحو إلى خارج"الجر"و"العطف"،حيث تتبعها بعض البلاغيين محاولين الإفادة من ذلك في خلق صلات متجددة في صياغة الجمل وعدم الاكتفاء بالصور الوظيفية (الجاهزة) لتلك الحروف،مما يعد أحد عناصر البحث الأسلوبي الحديث.

وقد نال مبحث"الالتفات"أيضا عناية كبيرة لدى المفسرين والبلاغيين؛لأن الدرس القديم كان ينطلق من اختيار النمط المثال في الكلام،ويجعله ميداناً للتطبيق بمعنى أنه قائم على أساس وصفي لدراسة النماذج الراقية من الشعر،ودراسة النموذج القرآني بوصفه المثل الأعلى في الأداء الفني الذي يصل إلى الإعجاز.غير أن البلاغيين القدامى لم يتعمقوا كثيراً في الوقوف على هذه الظاهرة(الالتفات)،إذ ذكرت لديهم ضمن مباحث"علم البديع الذي"لم ينل منهم كعلمي البيان والمعاني حتى جاء السكاكي،وجعل"الالتفات"ضمن مباحث"علم المعاني"؛لأنه نظر إلى خواصه وأبعاده في مراعاة مقتضى الحال. و"جعل مسمى الالتفات أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلاً عن أحدهما الذي هو الحقيق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها.[49]وتبدو براعة السكاكي في نقله لمبحث الالْتفات من"البديع"إلى المعاني؛لاشتماله على خاصية في التركيب يُرَاعى بها مقتضى الحال،كما تتمثَّل براعته أيضًا في إدراكه لعملية العدول،وتوسيع دائراتها فيما مثَّل به من قول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِدِ *** وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ *** كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الأَرْمَدِ

وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي *** وَأُنْبِئْتُهُ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ[50]

فظاهرُ الحديث كان يقتضي البَدْءَ بلسان المتكلِّم،فالعدول هنا ليس بالنسبة لكلام سابق؛ وإنما بالنسبة للأصل الذي يجب أن يكون عليه الكلام،وبهذا يدخل التجريد في مجال الالتفات ومثل هذا

---

47 – ينظر: السكاكي،مفتاح العلوم،ص: 77/44.

48 – ابن الأثير،المثل السائر،تحقيق :أحمد الحوفي وبدوي طبانة،القاهرة،مكتبة نهضة مصر،دت،ج2،ص:239.

49– احمد الهاشمي،جواهر البلاغة،ص:298:

50 – السكاكي،مفتاح العلوم،ص: 96،97،وينظر : ديوان امرئ القيس،ص: 185.

الالتفات يشكل انزياحا أسلوبيا أسهم إلى حد كبير في كسر توالي الخطاب على وتيرة واحدة،وأحدث تنوعه تنوعا في الأساليب.

وبذلك يتَّضح أنَّ السكاكي يميل إلى توسيع نِطاق البنية المثالية (القاعدة)،التي يمثل الالْتفات عدولاً عنها،فليستِ القاعدة عنده"ما يمثله ظاهر العبارة؛وإنما يوسِّع دائرة النمط؛لتشملَ هذا البُعدَ الميتافيزيقيَّ للغة،البعد المعتمد على التقدير أيضًا،إمعانًا في تسجيل الخِلاف،وتعميق فجْوة الانحراف بين المقولة النحوية،والأسلوب البليغ."[51]

والتفت"السكاكي"في كتابه مفتاح العلوم كذلك إلى موضوع"القصر"،حيث ورد قوله:"واعلم أن القصر كما يجري بين المبتدأ والخبر،فيقصر المبتدأ على الخبر والخبر على المبتدأ أخرى،يجري بين الفعل و الفاعل،وبين الفاعل،وبين المفعولين،وبين الحال وذي الحال،وبين كل طرفين،وأنت إذا أتقنته في موضع،ملكت الحكم في الباقي،ويكفيك مجرد التنبيه هناك."[52]

وبعد تفصيل السكاكي لطرق القصر وأنواعه،يعترف بأن فهم قضايا المعاني يحتاج إلى ذوق سليم ورؤية نقدية واعية،إذ يقول:"فإن ملاك الأمر في علم المعاني هو الذوق السليم،والطبع المستقيم،فمن لم يرزقهما،فعليه بعلوم أخر،وإلا لم يحظ بطائل مما تقد وتأخر."[53]

والقصر أحد الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام،ويدعو إليها حال المخاطب،فهو من هذه الجهة لا يختلف عن الأساليب الأخرى كالحذف والذكر،والتقديم والتأخير...،فإذا كان لكل من هذه أسبابها الداعية إليها،فإن القصر كذلك إنما يؤتى به عند الحاجة،وعندما تكون هناك ضرورة... وعليه القصر من مباحث علم المعاني في البلاغة العربية،بحيث يعتبر الغرض الذي يؤديه غرضاً جوهرياً رئيساً يتعلق بمعاني الجمل وأحوال بنائها،إذ يلتقي في ذلك مع اهتمامات الأسلوبية الحديثة.

ووقف أيضا السكاكي في مفتاح العلوم على أنواع الإنشاء الطلبي وعلاقتها بالمعنى،حيث قسم الإنشاء الطلبي إلى نوعين"نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وقولنا لا يستدعي أن يمكن أعم من قولنا يستدعي أن لا يمكن،ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول"[54]،وقد بين"السكاكي"خصوصية الأساليب،وجوانب الاتفاق والاختلاف بينها في التأثير على المعنى،حيث تناول الاستفهام وعلاقته بالمعنى إذ يقول:"وقولك في الاستفهام :أين بيتك أزرك؟على معنى أن تعرفنيه،أو أن أعرفه أزرك وأما العرض فهو

51 - عبد الحكيم راضي،نظرية اللغة في النقد العربي،ص: 250.

52 - السكاكي،مفتاح العلوم،ص:288.

53 - م،ن،ص:292.

54 - السكاكي،مفتاح العلوم،ص:131.

كقولك:ألا تنزل تصب خيرا،على معنى:إن تنزل تصب خيرا،فليس بابا على حدة،وإنما هو من مولدات الاستفهام كما عرفت."(55)

فهذا"الانحراف بالمعنى"الذي كشف عنه"السكاكي"هو أساس الدرس الأسلوبي الحديث الذي يتعامل مع لغة النص من منطلق الظواهر اللغوية.

إذن فأساليب"الإنشاء الطلبي"في مجملها ترتبط بالمعنى المراد التعبير عنه،وعليه فإن استخدامها يعكس ظاهرة أسلوبية في النص،حيث يسعى المبدع من خلالها إلى تقديم فكرة أو حقيقة لها خصوصية واضحة في الكشف عن المعنى الذي يريد المبدع تقديمه.

لقد اهتم"السكاكي"في كتابه"مفتاح العلوم"بركني الجملة الأساسية وهما"المسند والمستد إليه" وما يطرأ عليهما من تغيير في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير...إلخ،وكما رأينا فإن تلك القضايا تقع تحت خانة علم المعاني،حيث تلتقي البلاغة العربية القديمة بالأسلوبية الحديثة في محاولة الكشف عن المعنى.وهو مايؤكد التقاء تنويهات وإشارات"السكاكي"عن التغييرات اللغوية التي تتشكل في النص تحت خانة"علم المعاني"مع الإشارات الأسلوبية التي يتطرق لها الأسلوبيون في لغة النص.وكما رأينا فإن الوسائل التعبيرية الموروثة أصبحت–بشكل أو بأخر–إحدى مجالات الدراسة الأسلوبية الحديثة،ولا باعتبارها موروثات مقدمة،وإنما باعتبارها إمكانيات لغوية،من الممكن رصد وتحليل العلاقات بينها؛لاكتشاف النظام العام الذي يحكمها،ثم لنتبين النية الجمالية التي تختفي وراءها.

وكما رأينا فإن"علم المعاني"يتعلق ببعض المباحث البلاغية التي تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تغيير(بناء الجمل،ترتيب الكلمات...)،وهو في هذا"يتوافق مع حديث الأسلوبية عن علاقة اللغة بالمعنى،إذ ينبغي على الباحث الأسلوبي أن يميز بين الملاحظة اللغوية التي تسهم في الوصول إلى المبادئ التي تفسر ما ينطوي عليه العمل الأدبي من تعدد واختلاف،والملاحظة اللغوية التي لا تشكل أهمية خاصة في هذا السبيل."(56)

---

55 - م،ن،ص:322/321.

56 - محمد أحمد،بريري،:الأسلوبية والتقاليد الشعرية،دراسة في شعر الهذليين،عين للدراسات والبحوث الإجتماعية،ط1،دت،ص:15.

2-صلة الأسلوبية بعلم البيان:

لقد اعتمد البلاغيون التعريف الذي وضعه السكاكي الذي يرى"أنّ البيان هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان؛ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه."[(57)]

والأسلوبية ليست بعيدة عن علم البيان الذي وقف عليه البلاغيون العرب القدماء،فالتشبيه عند"السكاكي"نمط بلاغي من أنماط الصورة،وهو يحدد مفهومه انطلاقاً من زاويتين أساسيتين : تقع أولهما في إطار عناصر التفاعل،والأخرى في طبيعة العلاقة القائمة بينهما،إذ يقول: "التشبيه مستدع طرفين مشبها ومشبهاً به،واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر،مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو العكس،فالأول كالإنسانين : إذا اختلفا صفة طولاً وقصراً،والثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة : إنساناً وفرساً. "[(58)]

ويَبنِي"السكاكي"قوةَ التشبيه أيضًا على أساس فكرة العدول؛حيث إنَّه قال: "والحاصل مِن مراتب التشبيه ثمانٍ،أحدها: ذكْر أركانه الأربعة... وثانيتها: ترْك المشبَّه... وثالثتها: ترْك كلمة التشبيه،كقولك: زيد أسد في الشجاعة،وفيها نوع قوَّة،ورابعتها: ترْك المشبَّه وكلمة التشبيه..."[(59)].فقوله: "ذكر أركانه الأربعة"،ثم قوله: "ترك المشبه"،ثم قوله: "ترك كلمة التشبيه"؛يعني بهذه الأقوال: العدول عن الذِّكْر لغرض بلاغي،حيث يشكل ذلك بعضا من مناحي الدرس الأسلوبي الحديث .

وفي ضوء هذا الفهم نستطيع أن نتلمس خيوطاً من التوافق بين وجهة نظر"السكاكي"ووجهة النظر في الأسلوبية الحديثة التي ترى أن:"التشبيه لا يعني تحقق معنى واحد،ينقل آلياً من المشبه إلى المشبه به بل إنه يولد في الطريق إيماءات تظل تناوش طرفي التشبيه،وهو يؤدي متصلاً بسابقه ولاحقه دوراً فنياً في العمل الفني بأكمله."[60]

وكذلك الكناية التي قد تكون تعريضا،أو تلويحا،أو رمزا،أو إيماء.فقد ذكر السكاكي قائلا:"ثم إن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة."[(61)]فمما يتيحه الأسلوب الكنائي فنية المبالغة التي تنتهي بالمعنى إلى أقصى ما يقصد من التعبير،فهو يضفي بعدوله عن الأصل ظلالا خاصة.

57 - السكاكي، مفتاح العلوم،ص :70 .

58 -م،ن،ص:332 .

59 - م،ن،ص:168.

60 -ريتشاردز،فلسفة البلاغة،ترجمة:ناصرحلاوى،سعيد الغانمى،مجلة العرب والفكر العالمى،ع 1991،14،13،ص: 305 .

61 - السكاكي، مفتاح العلوم،ص:190.

و في حديث السكاكي عن المجاز،فيقول:"وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق،استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها،مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع" [62].

وأما بالنسبة للنظريات الحديثة فمنها ما ذهب إلى تقسيم المجاز إلى نوعين،لكن ليس إلى النوعين اللذين ينقسم إليهما المجاز في البلاغة العربية،وإن كان بينهما قواسم مشتركة في جانب التقسيم،وجانب العلاقات التي يبنى المجاز عليها،ومن هؤلاء"ميشال لوغورن"،حيث يشير إلى أن علماء البلاغة لم يقترحوا تعريفا محددا للمجاز المرسل،ثم يأتي بتعريفه في قاموس"ليتريه"فيقول:"المجاز المرسل لفظة بلاغية نضع بواسطتها كلمة مكان أخرى توحي بدلالتها،وبهذا المعنى يصبح المجاز المرسل اسما مشتركا لكل الصور البلاغية،ولكننا نحصره بالاستعمالات التالية:في علاقة السبب بالنتيجة،والنتيجة بالسبب،والحاوي بالمحتوى،واسم مكان حدوث الشيء بالشيء نفسه،والإشارة بالشيء المشار إليه،والاسم المجرد بالاسم المحسوس،وأجزاء الجسم المعتبرة مراكز الأحاسيس أو العواطف بهذه العواطف والأحاسيس،واسم سيد البيت بالبيت نفسه.والسابق باللاحق . [63]

فالصورة البيانية تنقل السامع عن اللغة العادية إلى اللغة الفنية التي تجعله أقرب إلى فكر الكاتب وإحساسه وشعوره...وهذه التشكيلات هي التي تشكل أساس الدراسة الأسلوبية،وبذلك أصبحت الوسائل التعبيرية الموروثة كالمجازوالتشبيه... إحدى مجالات الدراسة الأسلوبية الحديثة لكونها إمكانات لغوية من الممكن رصدها وتحليل العلاقات بينها لاكتشاف النظام العام الذي يحكمها.

ويعرف السكاكي أيضا الاستعارة بأنها:"أن تذكر أحد طرفي التشبيه،وتريد به الطرف الآخر،مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به،دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به." [64]فهاته الاستعارة التي وقف عليها السكاكي تعد جزءا من المجاز اللغوي.الذي يشكل متغيرا في تركيب الصورة وبخاصة التشبيه،وهي تفارق الكذب،لأن فيها قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.والمجاز هو خروج عن أصل اللغة،والخروج بحد ذاته ظاهرة أسلوبية تستوجب الرصد والتحليل.

---

62 – م،ن،ص:359،

63 – ينظر: ميشال لوغورن،الاستعارة والمجاز المرسل،ترجمة:حلا جميل صليبا،منشورات دار عويدات،بيروت لبنان،ط1988،1،ص:33،32.

64 – السكاكي،مفتاح العلوم،ص:369

وقد أورد"ميشال لوغورن"تحت عنوان"نحو تحليل سيميائي"في خضم حديثه عن العلاقة بين الدراسة البلاغية في مجال الاستعارة والمجاز المرسل وبين دراستهما لدى المحدثين،إذ يقول:"الدراسة الأسلوبية للاستعارة وللمجاز المرسل ليست حديثة العهد،ولا ندعي تحديدها،وإنما لفت الانتباه إلى بعض المظاهر الهامة المهملة في أغلب الأحيان."(65)

وهكذا وقفنا مع السكاكي على أنواع المجاز وهي الاستعارة والمجاز اللغوي... ،إذ أن هذه المجازات تعرف اليوم بما يسمى"الانحراف الدلالي"عند الأسلوبيين المحدثين.

3-صلة الأسلوبية بعلم البديع.

وبادئ ذي بدء نشير إلى أن"السكاكي"لا يرى في البديع قسماً مستقلاً من أقسام البلاغة،بحيث يمكن أن يشكل-عنده-أحد أطراف الثلاثية البلاغية التي استقرت عليها البلاغة العربية فيما بعد،وإنما رأى أن البلاغة تقوم في الأساس على علمي المعاني والبيان،وما سوى ذلك،فهو من متممات البلاغة لا من صميم اهتماماتها.إذ يقول: "إن البلاغة بمرجعيها،وأن الفصاحة بنوعيها،مما يكسو الكلام حلة التزيين،ويرقيه أعلى درجات التحسن،فههنا وجوه مخصوصة،كثيراً ما يصار إليها،لقصد تحسين الكلام."(66)

وعليه فإذا كانت مباحث علم المعاني تتناول الدلالات المركبة،ومباحث علم البيان تتناول الدلالات الافرادية –فإن مباحث البديع تتناول اللفظ وما يحمله من ألقاب بحسب تأليفه مع غيره من الألفاظ.(67)وقد أورد"السكاكي"في نهاية كلامه على علم البديع:قوله:"وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني،لا أن تكون المعاني لها توابع،أعني: أن لا تكون متكلفة."(68)حيث كانت هذه محاولة من السكاكي لتأصيل العلاقة بين المحسنات اللفظية والمعنى،وتعد ملاحظات السكاكي في الجزء الثالث من كتابه مفتاح العلوم ذات بعد أسلوبي لكونها صورة تخدم المبحث الأسلوبي اللساني.(69)

والسكاكي في حديثه عن الطباق والمقابلة ،نوه بشكل واضح إلى الثنائيات التقابلية التي قد تحدث ...كتكرار القائم على أساس السجع أو الجناس أو رد العجز على الصدر،حيث عرف السكاكي المقابلة

65- ميشال لوغورن،الاستعارة والمجاز المرسل،ص:207.

66 - م،س،ص: 423 .

67- العلوي،الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،المقتطف،القاهرة،1914،ج2،ص:304.

68 - السكاكي،مفتاح العلوم،ص:432.

69 - سعد عبد العزيز،مصلوح،البلاغة العربية والأسلوبيات السانية آفاق جديدة،ص:67.

بقوله هي:"أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر،وبين ضديهما،ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده."[(70)]

وعليه فاستخدام هذه الثنائيات يعكس ظاهرة أسلوبية في داخل النص،يمكن رصدها وتتبعها،على اعتبار أنها لها علاقة ليس فقط في التضاد،وإنما في التناسب أيضا،وهذا التضاد قد يزداد فيخرج من دائرة الطباق إلى المقابلة.

وقد حاول البلاغيون القدامى رصد الثنائيات التقابلية التي يقدم المعجم الغوي،إذ امتد الرصد إلى الثنائيات التي يفرز السياق طبيعتها التقابلية ،ولو لم يتحقق فيها التضاد."[(71)]

وبناء على ذلك فإن التحولات في اللغة أو تبدل الكلمات وانحرافها يدخل في سياق البديع،فالظواهر البديعية تتصل أساسا بالجملة،وقد تمتد أحيانا إلى ما يجاور هذه الجملة غير أن ذلك يظل محصورا في إيطار محدود في داخل النص،وفي سياقات محددة،ولكن إذا امتدت خارج الجملة وشكلت ظاهرة،فإنها تكون مجالا للدرس الأسلوبي الذي يرصد الظواهر ويحللها لا على أساس لغوي،ولكن على أساس علاقتها بالنص أولا ثم المبدع والمتلقي بعد ذلك .

ولا يفوتنا في هذا السياق التنويه إلى علاقة البديع بمكونات النص،حيث أصبح يمثل"أداة تعبيرية يعتمد المفارقة الحسية والمعنوية بذاتها،كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصية بذاتها،وكل ذلك يمثل عملية تنظيم لأدوات التعبيرية التي كان الإلحاح عليها وسيلة لقبولها أولا ،ثم الإعجاب بها ثانيا"[(72)]

ويركز السكاكي على قضية تقابل المعنى،إذ هو بذلك يحدد علاقات لغوية في داخل النص،تشكل ظاهرة أسلوبية يمكن رصدها،وتحليلها"ويصل السكاكي بعلاقة التناسب بين المتقابلين إلى درجة التضايف،فالسواد والباض،والسكون والحركة[...]كلها ينزلها منزلة المتضايفين؛بأن الذهن يستحضر الضد على الفور قبل مجيء الطرف الآخر."[(73)]

وعليه فتكرار استخدام المحسنات في نص من النصوص يعد ظاهرة أسلوبية تخص طبيعة النص،وهي بلا شك علاقة بالمبدع الذي ألح على استخدام هذه الصيغ التعبيرية،ولا بد للدارس من

---

70 – م،س،ص:424.

71 – عبد المطلب،محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،ص:358.

72 – عبد المطلب،محمد،البلاغة العربية قراءة أخرى،ص:348.

73 – م،ن،ص:355.

رصدها وتحليلها أسلوبيا.فاستعمال الطباق والمقابلة والجناس والسجع في داخل النص يمثل حالة تكرارية تعكس نمطا معينا لدى الكاتب في التعبير،وترتبط بشكل أو بآخر،بمحاولة الإقناع.

الخاتمة :

وبعد هذه الوقفات العجلى على البلاغة القديمة وعلاقتها بالأسلوبية أجد نفسي رغم قلة الزاد قد وصلت إلى ثمرة الجهد الضئيل التي ألخصها في مجموعة من النتائج،وذلك على النحو الآتي:

-كان الأقدمون صادقي الحدس عندما قالوا عن البلاغة إنها علم لم ينضج ولم يحترق في عصورهم،أي أنه مدعو للنضج في العصر الحديث على ضوء أو نار تطورات علم اللغة،ومعطيات نظريات الأدب والجمال،ليعبر عن مفهوم جديد للعالم،ورؤية مستحدثة لموقف الإنسان منه،ولا تنفع في آدائها مقولات الأقدمين،مهما كانت ذات حظ من الذكاء والشمول؛لأنها مشروطة بمراحلهم التاريخية،ومحدودة بمدى معارفهم العلمية والإنسانية.لكن كل ذلك لا ينفي الاعتراف بالجميل الذي قدمه السكاكي من خلال جهوده في سبيل تطوير اللغة حتى أصبح له الفضل في إعطاء الشعلة لجيل غير جيله .

-أن البلاغة تلتقي في كثير من جوانبها مع الأسلوبية الحديثة،لولا أن لكل منهما مهمة وأهدافا ووسائل،مما جعل كلا منهما تمثل بناء مستقلا عن الأخرى فيما يبدو لأول وهلة.

-أن البلاغة لا يمكن أن تتعارض مع الأسلوبية بل تتكامل وتتعاضد.كما أنها قادرة على الرقي إلى مستوى الأسلوبية وأكثر إذا جددنا فيها وجعلناها تواكب التطور اللغوي و تستفيد من معطيات العصر.

-أن البلاغة العربية القديمة ما تزال قادرة على مسايرة مستجدات العصر والعلم الحديث،إلا أن غياب نظرية متكاملة للبلاغة العربية يتم جمعها من أشتات التراث البلاغي العربي سبب إحساس أبناء البلاغة العربية بالضعف أمام الآخر فهرولوا للاستعارة والاقتراض منه.

وأخيرا أعتذر عن جوانب القصور التي اكتنفت هذا البحث ففكرته تصلح لأن تكون رسالة علمية كاملة ناضجة وقد تتوسع في بعض جزئياتها إلى رسائل،وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.